بهارات مشكلة

انطلق سباق الأصوات في السوق منذ الصباح الباكر، حيث أن الأعلى صوتا سيرتاد عليه الزبائن بكثرة. الأصوات المنطلقة من أفواه الباعة كانت تملأ السوق ضجيجا بشريا منفرا، والشمس التي تخترق بلهيبها سقوف السوق القماشية كانت تزيد من حرارة التسوق عند المتسوقين، بينما الألفاظ البذيئة التي يتلفظ بها أصحاب العربات المتنقلة كانت تقتل الآذان النظيفة.

بين مداخل السوق ومخارجه يلتقي الناس على اختلاف أنواعهم وخصائصهم ويضطرون أن يندمجوا مع بعضهم بعضا لغاية التسوق، لهذا اضطرت أم رياض أن تفرد بسطة البهارات المشكلة أمامها لتصيب رزقها المكتوب متحملة كل مالم تعتد عليه في تربيتها ونشأتها، فصوتها الهادىء لن يمكنها من خوض سباق الأصوات، وحياؤها لن يجعلها تستمر في مراقبة أصحاب العربات لتستخدمهم في خدمة زبائنها، بينما جمالها لن يتحمل لهيب الشمس الملتصق بسقوف السوق. لكن مع كل معوقات السوق هذه تمكنت أم رياض من تشكيل قاعدة زبائن متينة، فهي ترضى بالربح القليل مقابل البيع الكثير، مما أدى لإدخال الحسد في قلب أبي أسعد صاحب أكبر متجر للبهارات في السوق، فزبائن أم رياض يفوقون زبائنه بكثير رغم أن متجره يحوي أفخم أنواع البهارات وأجودها كما أن محتوياته تفوق ما تحمله بسطة أم رياض البسيطة، لكنه الرزق المكتوب.

حاول أبو أسعد أن يتزوج من أم رياض ليضيفها لزوجاته الثلاث، لكن أم رياض ترفض فكرة الزواج بتاتا، وحجتها في ذلك ابنها رياض، فهي تريد أن تتفرغ لتربيته وتدريسه بعد وفاة والده، فهذه وصية زوجها ولن تفرط في تنفيذها مهما أكل السوق من شبابها، وخصوصا انه الآن في مرحلة الثانوية وبقي له عاما واحدا لدخول الجامعة، وبذا تحقق أم رياض حلمها في تدريس ابنها، فازداد حقد

أبي أسعد وقرر أن يحاربها في رزقها لعلها ترضى به زوجاً حينما تكاد تموت جوعا.

عادت أم رياض لبيتها والتعب يكاد يشلها، وأحضر ابنها الماء المملح لتنقع قدميها به، فابتسمت له ابتسامة مملوءة بالرضا، ونظرت إليه نظرة ممزوجة بالتعب والسعادة في آن واحد، لكن ابنها لمح بريق التعب بوضوح أكثر، فتنهد تنهيدة خفيفة وجلس مقابل ساقي أمه وركز النظر في عينيها بكل عطف قائلا بحنان بالغ:

- أمي، ألم يأن لك أن ترتاحي من كل هذا العناء؟!

- إنه رزقنا يا بني، وما ألذ الرزق الممزوج بالتعب.

- لقد أصبحت رجلا، وأنت ما تزالين تدبرين لقمة الخبز.

- مهما كبرت ستبقى طفل عيني.

- أمي، حتى القانون سيعترف ببلوغي بعد بضعة شهور وأنت تعاملينني كما تعاملين الأطفال.

ابتسمت أم رياض، وبدأت تجفف قدميها من الماء، لكن سرعان ما اخفت الابتسامة وألقت المنشفة بجانبها بغضب حينما سمعت ابنها يقول:

- أمي، آن الوقت كي ترتاحي... سوف أذهب للسوق عوضا عنك.

- إياك أن تعيد هذا الكلام مرة أخرى، فلم أمض حياتي في السوق بعد وفاة والدك كي تأتي الآن لتقول توقفي عن العمل، لم يبق لدخول الجامعة إلا القليل فاللقمة تكاد تصل للفم!

حاول رياض أن يستعمل كل سبل الإقناع مع أمه، لكنها أنهت النقاش منذ بدايته، ولن تسمح أبداً أن يفتح معها هذا الحديث مرة أخرى، فهي مستعدة أن تتجرع المر مقابل أن تنفذ وصية زوجها، وهاهي تقترب، فماذا عنك أيها القدر، هل ستقدر بائعة البهارات على تحقيق مرامها؟! أغلق رياض باب غرفته على نفسه بعدما أغلق على الإصرار في قلبه، وحرص كل الحرص أن يتفوق في دراسته لعله يحظى ببعثة أوائل الطلبة ويدرس بالمجان، كانت الأحلام تراوده من

أجل أمه وليس من أجله، فقد رسم صورة أمه أمام كل حرف من حروف كتبه، ومضى جاهدا أن يعين أمه على تنفيذ وصية والده الذي لم يراه قط.

تجمع الزبائن حول بسطة أم رياض وهي تعمل بكل جد، تعبئ البهارات في أكياس صغيرة وتعطيها بحركات خاطفة للزبائن دون توقف، فاستغل أبو أسعد تجمهر الزبائن حول بسطة أم رياض وأرسل الصبي الذي يعمل عنده لينفذ ما اتفقا عليه، وحينما وصل الصبي البسطة مخترقا التجمهر وحينما تأكد أن الكل يسمعه مد حزمة من النقود نحو أم رياض وقال بصوت مرتفع:

- لقد أرسلني ذلك الرجل الذي يجلس في تلك السيارة الفخمة وقال لي أعطي أم رياض هذه النقود وقل لها هذه أجرتك عن ليلة أمس وأنك ستأخذين المزيد لو رضيت أن تخرجي معه إلى بيته هذه الليلة أيضا.

حملق الزبائن في وجوه بعضهم بعضا بينما قد شل لسان أم رياض داخل فمها وعجزت عن الدفاع عن عرضها، وشعرت أن الأرض تتزلزل من تحتها وأن الكون يدور بها فتمنت أن تغوص في الموت كي يرحمها مما هي فيه، وبدأ الزبائن يغادرون بسطة أم رياض واحدا تلو الآخر وهم يستغفرون الله، وكأنهم قد رأوا فاحشة للتو، التفتت أم رياض نحو متجر أبو أسعد وشكلها يوحي بالمرض فوجدته يقف أمام متجره وهو ينفث سيجارته مع ابتسامة شيطانية، فحاولت أن تقف على قدميها لعلها تصله فتلطمه على وجهه وتنعته بالنذالة لكن قدميها خاناتها، وسقت أرضا غارقة بغيبوبة طويلة، فهي التي تحملت ضنك الحياة وبشاعة السوق كي تبعد كلام الناس عنها، وكي توفر لابنها حياة نظيفة يرفع رأسه بها متى شاء، كانت تطمح أن تكون قدوة لابنها، وأن تزرع شخص أبيه في داخلها، فتكون له آبا وأما في الوقت نفسه، كانت تتوقع أن تكون قوية قادرة على تحمل مشاق الحياة وتدافع عن نفسها أمام أي اتهام مهما عظم شأنه، لكنها لم تكن أن اتهامها في عرضها سيقتلها ويجعلها تموت سريريا.

اضطر ابنها دون أن يعلم سبب مرض أمه ورقودها في المستشفى أن يواصل عمل أمه وأن يدب الروح في بسطتها من جديد، فقد أنهكه التعب والبكاء على حال أمه، وقد كادت مشاعر الجنون أن لولا زفير الأمل الذي كان ينبعث من أنف أمه وهي نائمة، فشد العزم أن يواصل عمل أمه بعد انتهائه من دوام المدرسة، فيصرف على علاج أمه ما بقيت راقدة في المستشفى. وقد استغل جلوسه أمام البسطة في الدراسة كي يتمكن من الحصول على المعدل المطلوب ليدرس مجانا، فلا بد أن نجاحه سيشفي أمه بإذن ربه، لقد كان نصيبه في الرزق كنصيب أمه، فقد كانت قدوته بالفعل، يعامل الناس باحترام ويبيع الكثير ليجني الربح القليل، ويبتسم للمارة بصدق، وكأنه يريد أن يتصدق عليهم من اجل أن تشفى أمه، وما زال أبو أسعد يرقب قوة الإرادة عنده محاولا أن يقتلع هذه العائلة من السوق من جذورها، فهو يظن أن وجودهم نحس عليه، فآن الأوان ليتخلص من ابن تلك المرأة العنيدة التي رفضت الزواج منه.

مرت الشهور والبسطة تجني ما يجنيه متجر أبو أسعد، أليس هو الرزق المكتوب فوق سبع سماوات، أليس الله أمرنا بالسعي وتكفل هو وحده بالرزق، فهذا حال رياض فقد رزق رزقا وفيرا يكفيه علاج أمه ولقمته، خلال هذه الشهور تمكن رياض من النجاح بمعدل باهر وبذا يكون قد حقق حلم أبويه، بينما قد خفق أسعد في دراسته للمرة الثالثة رغم أنه يملك مالا يملكه رياض من رغد العيش، فاشتعل لهيب الحسد والحقد في قلب أبو أسعد وازداد مرضه اللعين في داخله، وقرر أن ينفذ رغبته بالتخلص من هذا الفتى واتصل بالبلدية!

أصبح السوق كساحة وغى، أو ربما أن القيامة قد قامت فيه، الناس بدأت تركض بضجر، والباعة المتجولون هربوا ببضاعتهم، بينما قد حزم بياعو البسطة بسطتهم في خرقة بالية وانطلقوا يجرونها ورائهم إلى مصير غير معروف، بينما كان رياض يلتفت حوله فزعا من هول الموقف، ولا يدري ماذا يفعل، حاول أن يقف ويلم بضاعته ويفر هاربا كبقية الباعة، لكن الوقت لم يسعفه، حيث أن مفتشي البلدية

قد جاؤوا له بالذات وليس لغيره، قد جاؤوا ليغتنموا بضاعته بلا قتال، جاؤوا ليقتلوا أحلام طريفة لم تتضج بعد في قلبه، أمسكوه بعنف ورموه على قارعة الطريق كجرذ قذر، وشرعوا في سلب بضاعته ووضعها في شاحنتهم وبقاياها تتراكم تحت أقدامهم، أمسك رياض شيئا من بقايا بضاعته وأصبح يقبلها والدموع تحرق وجنتيه قائلاً:

" لا تسرقوا دواء أمي، لا تسرقوا لقمتنا"

لم يعتد رياض أن يترجى أي شخص، فهكذا ربته أمه، لذلك وقف متسمرا على أرضه واقبل نحو المفتشين بصرامة وأمسك أحدهم من تلابيبه قائلا بكل حدة:

- أعد البضاعة، لا تحارب رزقنا، نريد أن نعيش.

هجم عليه بقية المفتشين وأبعدوه عن زميلهم فقالوا له وكأنهم يشتركون في لسان واحد.

" عش وفق أحكام القانون"

" من أراد أن يخالف القانون يستحق ما أصابك"

" بضاعتك غير مشروعة ونحن نخشى على الناس الهلاك"

صرخ رياض في وجوههم بعدما سمع جملهم المنفرة بأعلى صوته:

" ألست واحدا من هؤلاء الناس الذين تخشون هلاكهم، ألا تخشون هلاك أمي وهلاكي أيضا، أم أننا لسنا من الناس، القانون وضع لإسعادنا وليس لشقائنا فإن كان قانونكم سيجعلنا نموت لن نرضى به أبدا، هل فهمتم؟!"

لم يفهموا يا رياض كلماتك ولن يفهموا، فما هم سوى آلات تنفذ ولا تفكر، فلا تضيع صوتك سدى، والتفت لمستقبلك فهو يناديك.

جلس أبو أسعد أمام متجره بكل تفاخر ووزع الحلوى احتفالا بالقضاء على شرفاء السوق وأنقاهم سريرة، بينما رياض قد لملم أحزانه وغادر السوق متأملا أن يبدأ مشوار حياته من جديد بكل ثبات وصبر، لكن الخبر الذي جاءه من المستشفى قبل قليل جعل الصبر يفرغ عنده، فأمه تحتاج لدواء ضروري لا يتوفر في صيدليات

المستشفى كما أن ثمنه مرتفع للغاية، حاول رياض أن يستقرض ثمنه من معارفه في السوق، لكنهم رفضوا بحجة أنه لم يعد لديه عمل كي يتمكن من سدادهم في المستقبل، فابتسم له أبو أسعد بخبث كي يلجأ إليه لكن كرامة رياض جعلته يفر هاربا من السوق للأبد، فذهب لإحدى الصيدليات محاولا أن يستعطف صاحبها كي يعطيه الدواء، لكن الصيدلاني ضحك بشدة وقال" أنه لا يملك ذلك الإيمان الكافي ليجعله يتصدق برزق عياله على المارة والمتسولين".

شعر رياض أنه كالمتسول بالفعل، وأنه لا توجد طريقة تجدي نفعا مع أناس قد استقرت المادة في عمق قلوبهم، وأصبحت علاقاتهم تقتصر على مصالحهم، فأنى وجدت المصلحة وجدت العلاقة، شعر للحظة أن المبادئ والقيم التي علمته إياها أمه بدأت تنقرض شيئا فشيئا، فعزم على حين غفلة أن يحضر الدواء بطريقة لم يعهدها في حياته ولم يتوقع أن يفعلها أبدا، فبررت غايته وسيلته في ظل قانون تبرر وسيلته غايته، لذا عمد ليلا لصيدلية ذلك الصيدلاني وكسر أقفالها محاولا أن يقتحمها ويأخذ الدواء، لكن أجهزة الإنذار التي لم يتوقعها كانت له بالمرصاد فوقع بين أيدي الشرطة متلبسا، فأصبح بعد اليوم سارقا!

توفيت أم رياض وانهارت قوى ابنها خلق قضبان السجن، وودع دراسته الجامعية للأبد، فالسارقون لا يستحقون البعثات المجانية، وودع وصية أبيه منذ أن ودعت أمه أنفاسها الأخيرة، لكن الأمل ما زال يحلق فوق شرفة قلبه، وأراد أن يحقق ما عزمت أمه على تحقيقه، فلن يجلس مكتف الأيدي أمام مطبات الدنيا، فهذا ما علمته إياه أمه وسيحرص على تنفيذه.

خرج لشوارع الدنيا بعد انقضاء فترة الحكم، وزار قبر والديه وبكى عندهما بكاء يكفي لري مزرعة شوك كبيرة، فكفكف دموعه وعاد إلى بيته بعدما قرر البحث عن عمل ما ليعيله ويعيل دراسته بعدما قرر الدخول الجامعة، ففتح له القدر بوابة الأمل وعانقت السعاده محياه، حيث أنه أجرى مقابلة للعمل في شركة كبيرة، حيث

ستقوم مهمته التدوين والحسابات، فقد اثبت مهارته في ذلك خلال المقابلة وقرر فريق العمل توظيفه لديهم لكن شريطة أن يحضر وثيقة " عدم محكومية" يثبت فيها انه حسن السيرة والسلوك وانه لم يرتكب جنحة مخلة بالأخلاق والآداب أبدا، حينئذ اقترب كابوس الشؤم من بصيص الأمل في قلب رياض ليخنقه ويقتله للأبد، لكنه ذهب لقصر العدل لإحضار الوثيقة في محاولة أخيرة منه ان يتلطفوا بحاله وان يمسحوا خطيئته من سجلاتهم نهائيا، وخصوصا أنه قد تاب عن فعلته ولا سيما أنه كان مضطرا لفعل ما فعل، فالله يتوب على عباده.

لكن واقع الحال يا رياض مختلف تماما عما كنت تعتقده، فتوبتك لن يغفرها القانون ما حييت وستبقى خطيئتك تسطر سجلاتك ودفاترك أينما ذهبت، وسيبقى جحيم ذنبك يرافقك حتى في سعيك لرزقك.

شعر رياض أن الدنيا قد أصبحت سوداء للغاية، ولا يوجد فيها اللون الأبيض أبدا، كما أنه شعر أن حياته قد توقفت منذ أن كسر أقفال تلك الصيدلية، وأنه لن يصلح أن يعيش منذ هذه اللحظة بين البشر كانسان صالح يريد أن يبدأ حياته من جديد، لكن ما دامت تلك الأنفاس في صدره لا بد أن يعيش، ولا بد أن يبحث عن قوته كي يستمر في العيش، وما دامت تلك السجلات ستحتفظ به سارقا ما عاش، وأنه لن يتمكن في إيجاد وظيفة مناسبة ما دام أصحاب العمل يشترطون نظافة تلك الوثيقة ،سيضطر حينئذ أن يستمر في السرقة كي يستطيع العيش. فقد قرر رياض أن يبدأ عمله منذ هذه الليلة وسيبدأ من متجر أبي أسعد.

النهاية